اللذة

في نظر فلاسفة العرب

للدكتور فؤاد الاهواني

مبحث اللذة من الناحية الاخلاقية مبحث قديم بدأ منذ شرع الانسان يفكر ويرسم لنفسه سبل الحياة ، ويقدر ما يجب أن يفعل ، وما ينبغي أن يتجنب ، لان اللذة تتبع إلى حد كبير الخير والشر وهما اساس الاخلاق كلها . واشهر النظريات القديمة التي دارت في اذهان الفلاسفة ، وجرت على ألسنتهم ، وشغلت اذهانهم زمناً طويلاً ، ولا تزال تشغل الذهن حتى الآن ، وسيظل الجدل حولها قائماً ما دام الانسان مقيماً على سطح الارض ، نظريتان عرفتا باسم اصحابهما ، وهما مذهب الرواقيين ، ومذهب الابيقوريين . فالرواقيون ينادون بالزهد والتقشف والبعد عن طيبات الحياة ، والانصراف عن المال والزينة والطعام الشهي ، والشراب السائغ واللباس الفاخر ، وكل هذه الاشياء التي يستمتع بها الانسان وينشد منها لذة الحياة . ويعارضهم ابيقور قائلاً لِمَ خلق الانسان ؟ يجب ان يسعى جهده الى تحصيل لذة العيش ، واجتناب كل ما يدعو الى الالم ، ولكنه يقسم اللذة الى انواع ، لذة جسمية ولذة عقلية ، ولذة عاجلة تستتبع ألماً ، ولذة خالدة ، وان اللذة العقلية افضل من الجسمية ، واللذة المستقبلة خير من اللذة العاجلة ولسنا في صدد الكلام في اطالة عن هاتين النظريتين ، وانما اردت ان أسوقهما للدلالة على الخلاف القائم بين الناس فيما يتعلق بهذا الصدد ولأن هذين المذهبين قد اشتهرا بحيث أصبح اسم الرواقي يطلق في الاصطلاح واللغة على الزاهد الصادف عن اللذة ، واسم الابيقوري يرادف المقبل عليها

وقد ذهب فلاسفة المسلمين مذاهب شتى في هذا الصدد ، ونستطيع ان نرجع آراءهم إلى نظريات ثلاث : الاولى ان اللذة الحقة هي سعادة الآخرة ، وعبادة الله ، واتباع اوامر الدين ، والانصراف عن نواهيه . والثانية : ان اللذة هي تحصيل العلم ، وتحكيم العقل . والثالثة : أن اللذة في الاعتدال

وأنصار المذهب الاول هم المتصوّفة ، وأنصارهم كثيرون في الاسلام ، وأغلب فلسفتهم مستمدة من الدين الاسلامي . فقد اقتطعوا من القرآن الآيات التي تنص على سعادة الآخرة ، مصداقاً لقوله تعالى « وللآخرة خيرٌ لك من الاولى » وفي سورة الاسراء « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » . والآيات كثيرة لا نريد أن نسردها جميعاً ، ولكن الآية التي يستند اليها اكثرهم ونجدها في اغلب الكتب والرسائل هي « اما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى » .

والدافع الاكبر الذي دفع هذه الطائفة الى اصطناع التصوف انهم رأوا أن قد « زال الورع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوي رباطه ، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا في ميدان الغفلات ، وركنوا الى اتباع الشهوات . . . . . . » [1]

لذلك دعوا الى الزهد ، وهو سلو القلب عن الاسباب ، ونفض الايدي من الاملاك ، وهو الثقة بالله تعالى مع حب الفقر ، وهو استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب . وقال الحسن البصري الزهد في الدنيا ان تبغض أهلها وما فيها

وهناك فلاسفة دينيون اقل غلواً من المتصوفين والداعين الى الزهد وترك الدنيا اصلاً ، وهؤلاء هم اهل الشرع الذين يفرقون بين الحلال والحرام ، ويحثون الناس على الاستمتاع باللذة الحلال دون غيرها . وقد ينادون بالصدوف عن اللذات والاقبال على الشهوات فترة من الزمن يكون الغرض منها تقوية النفس وتطهيرها من الادران ، وتسمى هذه الفترة بالاعتكاف ، وهو « عكوف القلب على الله تعالى ، وجمعيته عليه ، والخلوة به والانقطاع عن الاشتغال بالخلق ، والاشتغال به وحده سبحانه ، بحيث يصير ذكره وحبه والاقبال عليه ، في محل هموم القلب وخطراته . . . . . . ويصير أنسه بالله بدلاً عن انسه بالخلق . . . . . . » [2]

والنظريتان الاخريان ، مرجعهما الى فلاسفة اليونان ، ومن العسير أن نجد نظرية من هذه النظريات خالصة عند اطباء العرب وحكمائهم بل هي مزيج من آراء اليونانيين مع ما قد اضيف اليها بعد ذلك

أما ابن سينا فانه يرى أن « اللذة ادراك لما هو خير عند المدرك والألم ادراك لما هو شر ، وقد يختلف الخير والشر بحسب القياس » [3] هذا هو التعريف الذي يضطلع عليه ابن سينا ،

(١) الرسالة القشيرية في علم التصوف ص ٢ و٣ (٢) زاد المعاد لابن القيم الجوزي ، ج١ ص ١٦٢ ، ٢
(٣) كتاب لباب الاشارات لفخر الدين الرازي ص ١٢٣

وهو التعريف الفلسفي هنا . أما الخطة الاخلاقية ، وهي ما يجب أن تكون عليه اللذة في رأيه أما اللذة العقلية ، لانها اشرف من الحسية ، وفي ذلك يقول « لما ثبت ان اللذة عبارة عن ادراك الملائم ، وثبت ان الملائم لجوهر العاقل أن يتمثل فيه جلية الحق قدر ما يمكنه أن ينال منه بنهاية الذي يخصه ، وثبت ان الادراك العقلي اشرف من الادراك الحسي ، لان الادراك العقلي غائص الى الكنه ، والحسي واقف على السطح ، والمعقولات متناهية ، والمحسوسات قليلة ، وظاهر ان مدركات القوة العقلية أشرف من مدركات القوة الحسية . . . . . . »[1]

أما الفارابي فانه يقول بأن اللذة يجب ان تسمى الى الحق فقط تارة ، ويعود الى فكرة الاعتدال في بعض كتبه الاخرى تارة اخرى . فهو يقول في رسالة صغيرة عنوانها « ما ينبغي ان يقدم قبل تعلم الفلسفة » : « وأما الحال التي يجب ان يكون عليها الرجل الذي يؤخذ عنه علم ارسطو فهي ان يكون في نفسه ما قد تقدم ، وأصلح الاخلاق من نفسه الشهوانية كيما تكون شهوته للحق فقط لا للذة ، وأصلح مع ذلك قوة النفس الناطقة كيما تكون ارادته صحيحة »

والنظرية الثالثة السائدة اغلب كتاب الاخلاق عند العرب ، هي النظرية القائلة بالاعتدال ، أو نظرية الوسط ، وهي في خلاصتها مستمدة من ارسطو . وأساسها ان الانسان مركب من ثلاثة قوى ، القوة العاقلة ، والقوة الغضبية ، والقوة الشهوانية . وان اصول الفضائل اربعة : الحكمة وهي فضيلة القوة العاقلة ، والشجاعة وهي فضيلة القوة الغضبية ، والعفة وهي فضيلة القوة الشهوانية ، والعدالة جملة هذه اللوازم ، وميزان هذه الفضائل

ويرى الغزالي ان اللذة ضرورية لسببين ، الاول لانها تتم الحياة ، والثاني لان الاحساس بها يرغب في الجنة ويحذر من النار ، وفي ذلك يقول « فانهم ان لم يحسوا بهذه اللذات والآلام لم يرغبوا في الجنة ، ولم يحذروا النار ، ولو وعدوا بما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فما أثر ذلك بمجرده في نفوسهم »[2]

ثم يفصل الغزالي بعد ذلك ما يجب على الانسان أن يفعله ازاء اللذات المختلفة فيقول « وعلى الانسان ان يراقب شهوته ، والغالب عليها الافراط ، لاسيما الى مقتضى الفرج والبطن والى المال والرياسة وحب الثناء . والافراط والتفريط في كل ذلك نقصان وانما الكمال في الاعتدال ومعيار الاعتدال العقل والشرع . . . . ومن عرف هذا كان قصده من الطعام التقوي على العبادة دون التلذذ به ، فيقتصر ويقتصد لا محالة ولا يشتد اليه شرهه ، ويعلم أن شهوة الجماع خلقت فيه تكون باعثة على الجماع الذي هو سبب بقاء النوع محفوظاً ليطلب النكاح للولد والتحصن لا للعب والتمتع »[3]

(١) كتاب لباب الاشارات لفخر الدين الرازي ص ١٢٤ — ١٢٥ (٢) العمل للغزالي ص ٧٠
(٣) ميزان العمل للغزالي ص ٦١ ، ٦٦ ، مطبعة العرب بمصر ، الطبعة الثانية

والفارابي رأيٌ لطيف ذكره في كتابه آراء اهل المدينة الفاضلة ، فقد ذكر الصفات المختلفة التي يجب ان يتصف بها صاحب الفضل ، وطالب الكمال ، فقال « ان يكون غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح متجنباً بالطبع للعب ، مبغضاً للذات الكائنة عن هذه » فهو هنا لا ينكر الاقبال على اللذة اصلاً ، ولكنهُ يطلب الاعتدال ، وعدم الشراهة ، وذكر عن المال « ان يكون الدرهم والدينار وسائر اعراض الدنيا هينة عنده » وعلى العكس من هذا ، مضادات المدينة الفاضلة ، وهي المدينة الجاهلية ، والفاسقة ، والمتبدلة ، والضالة . وصفات هذه المدن هي التي ينكرها الفارابي ، ولا تتفق عنده مع الاخلاق الفاضلة ، فقال عند الكلام على مدينة الشقوة والخسة انها « هي التي قصد اهلها التمتع باللذة من المأكول والمشروب والمنكوح وبجملة اللذة من المحسوس والتخيل ، وايثار الهزل واللعب بكل وجه ، ومن كل نحو »[1]

ولا يخرج رأي الرازي في خلاصته عن نظرية الاعتدال ، وهو الرأي الذي وضحه اشمل الايضاح في « الرسالة الفلسفية » التي كتبت عنها في عدد سابق من المقتطف . ويرجع السبب في بيانه هذه النظرية الاخلاقية الى أن « ناساً من أهل النظر والتمييز عابونا واستقصوا لما رأونا نخالف سيرة امامنا سقراط الفيلسوف » وهي الجملة التي استهلَّ بها رسالته . ويرى الرازي انهُ لا حرج على الانسان أن يستمتع باللذات المباحة التي هي قوام الانسان والمجتمع ، ولكنهُ يفصل بعد ذلك اللذات المطلوبة ، والحدود العليا والدنيا للذات . وهو يرى أن « المغبون من اشترى لذة بائدة منقطعة متناهية ، بدائمة باقية غير منقطعة ولا متناهية . لذلك لا ينبغي ان نطلب لذة ، لا بدَّ في الوصول اليها من ارتكاب امر يغضنا من التخلص الى عالم النفس ، او يوجب ألماً مقداره في كميته وكيفيته اعظم وأشد من اللذة التي آثرناها . واما سائر ذلك من اللذات فباحة لنا » . ويقول في تفصيل حدود اللذة « الحد الاعلى للذة ، ان يمتنع الانسان من اللذات التي لا يمكن الوصول اليها الاَّ بارتكاب الظلم والقتل . والحد الاسفل ، اعني في التقشف والتقلل ، فان يأكل الانسان ما لا يضره ولا يحرص عليه ، ولا يتعدى الى ما يستلذه غاية الاستلذاذ ويشتهيه فيكون القصد اليه للذة والشهوة لا لسد الجوع »

وهو يطعن اكبر الطعن على اولئك الذين يؤلمون انفسهم بالابتعاد كلية عن اللذات المباحة ، مثل الرهبان في المسيحية ، والمتصوفين في الاسلام ، ولكنهُ لا يرى بأساً على الرجل الفيلسوف ان يترك كثيراً من هذه المباحات ، اذا كان الغرض منها تقوية نفسه ، وتعويدها العادات الحسنة

الواقع إن الآراء السابقة المختلفة ان هي الاَّ خليط من فلسفة اليونان ، ولعلَّ أحداً يدرسها دراسة اشمل ويحققها تحقيقاً أوسع ، فيردها الى اصولها اليونانية ، ويبين ما اضافه العرب اليها

(١) آراء اهل المدينة الفاضلة للفارابي ، مطبعة التقدم . الطبعة الثانية سنة ١٩٠٦ ص ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ و ٦٩